

جلول مقورة

فلسفة التواصل في الفكر العربي المعاصر: طه عبد الرحمن وناصر بين القومية والكونية

(بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠١٥). ٢٧٢ ص. (سلسلة أطروحات الدكتوراه: ١١٦)

فدوى نصيرات(*)

عضو هيئة التدريس في جامعة فيلادلفيا - عمان.

والتأثيل. حاول الكاتب من خلاله التركيز على مقولتين للفعل التواصل في عند طه عبد الرحمن في العلاقة مع الذات أولاً ضمن مدلول التحديث الذي يأخذ معنى التجديد حيناً ومعنى الارتباط بروح الحداثة أحياناً أخرى.

ويتضمن هذا القسم فصلين:

الفصل الأول وجاء بعنوان «تحديث التواصل مع التراث» وتضمن المباحث الآتية:

أولاً، تجديد المنهج في فهم التراث وأشار الكاتب فيه إلى تجاوز النظرة التجزيئية إلى التراث وتأسيس النظرة التكاملية إليه.

ثانياً، تجديد القراءة في التعاطي مع النص القرآني وعمد فيه الكاتب إلى تبيان الموقف الطاهاني الرافض للقراءات الحداثية لمحمد أركون ونصر حامد، ونقد خططهم ثم الحديث عن القرآن وروح الحداثة.

أولاً: تحديد هيكلية الكتاب وما يحتويه من أقسام وفصول

تندرج محاولة الكاتب ضمن إعادة قراءة المشروع العربي في صورتية الطاهانية والنصارية من أجل إعداد خطة سليمة وصحيحة لإحداث تواصل فعلي وتفاعلي سليم في محاولة متواضعة - نحو إعادة قراءة المشروع العربي ضمن ما يمكن تسميته فلسفة التواصل.

ويحتوي كتاب فلسفة التواصل في الفكر العربي المعاصر: طه عبد الرحمن وناصر بين القومية والكونية، لمؤلفه جلول مقورة على قسمين:

جاء القسم الأول تحت عنوان طه عبد الرحمن فلسفة التواصل وجدلية التحديث

والبرهاني والفلسفي والكوني، الباحث عن الحقيقة في ذاتها.

وكون مهمة نصار تتأرجح بين إعلان تهافت التفكير الأيديولوجي وتقديم البديل الفلسفي جاء القسم مفصلاً كآلاتي:

الفصل الثالث: جاء تحت عنوان شامل لعناصره وهي «من التضيق الأيديولوجي إلى الأفق العلماني» وبه خرج الكاتب بتصور نصاري حول الحل لمعضلة الأيديولوجيا التي تهدد التفكير العقلاني والتفكير الحر والتي لن تخرج إلا بتأسيس فكر علماني صحيح، لذا ناقش:

أولاً، نقد التفكير الأيديولوجي الذي حاول من خلاله التعرف إلى مدلولات الأيديولوجيا وتطبيقاتها.

ثانياً، أدلجة العقل وتناول فيه قضية العقل العربي.

ثالثاً، البديل العلماني من ضيق السياسة إلى رحابة التنوير وفيه تم الحديث عن المدلول الواسع للعلمانية وعن علمانية تنويرية تهدف إلى تحقق المجتمع العقلاني والعلمي والعلماني، الذي يرفع شعار الحرية المسؤولة ويحولها إلى فعل حضاري كوني.

أما الفصل الرابع فقد جاء بعنوان «التواصل الفلسفي وجدلية القومي والكوني» وقد ركز فيه الكاتب على مدلول التواصل النقدي المنفتح لدى نصار والذي يتجه إلى نقد تاريخ الفلسفة نقداً، الهدف منه تحرير الوعي العربي من سقطات الاستقلال ويؤسس لتعامل إبداعي يبني على الاستقلال. ومن ثم التواصل الفلسفي ومقولة الإنسان الكوني الذي يدعو فيه نصار إلى تحقيق الأنموذج الكوني المتمثل بالتفكير في ما يسميه النهضة

ثالثاً، تجديد علم الكلام وإعادة تنظيم مراتب للحوارية أراد الكاتب من خلالها إظهار أنموذج للتعامل الإبداعي مع التراث الإسلامي وذلك من خلال بحث علم الكلام من جديد وتبيان القيمة التاريخية لمدلول الحوار والمناظرة داخل التراث الإسلامي.

الفصل الثاني وعنوانه «الطاهائية وتأثيل الخطاب الحداثي الغربي». توقف الكاتب من خلاله عند ثلاث نقاط:

أولاً، شرط التواصل مع الحداثة الغربية، المتمثل بالتأصيل والتأثيل والتبنيء وركز من خلاله على الحداثة كمفهوم غربي وتضمن مفاهيمها اللغوية والاصطلاحية ثم مأزقها داخل أسوار الثقافة الغربية ضمن ما يسمى ما بعد الحداثة.

ثانياً، الطاهائية وتأثيل الخطاب الفلسفي للحداثة من خلال محاولة لقلب المنظومة الاصطلاحية الغربية بما يتلاءم والمجال التداولي العربي الإسلامي كشرط ضروري للتواصل ضمن إطار احترام الخصوصية وإمكان الارتقاء بها إلى الكونية.

ثالثاً، الموقف من الحداثة الغربية بين خيار الانقطاع وحتمية التقاطع وقد تضمن النقد المباشر للمنظومة العقلانية والأخلاقية الغربية ومحاولة نظرية لتأسيس حداثة إسلامية مرتكزها روح الحداثة.

أما القسم الثاني فلقد جاء بعنوان «ناصر: من التصادم الأيديولوجي إلى التواصل الفلسفي» وحاول فيه الكاتب اختزال مدلولات التواصل عند ناصر القائمة على نقده لكل أنواع التفكير الأيديولوجي القائم على المصلحة والقومية والتعصب والتأسيس لفلسفة التواصل العقلاني

ويتمأسس المشروع النصاري على مقولات من قبيل العقلانية والفلسفة والحقيقة والإنسان والنقد والأيدولوجيا والكونية تصل به إلى إعلان تهافت التصادم الأيدولوجي وتأكيد ضرورة التواصل الفلسفي المؤسس على الحوار العقلاني والإنساني والكوني الهادف إلى نبذ التعصب الفكري والدعوة إلى الانفتاح وتجسيد القيم الأساسية للإنسان المتمثلة بالحرية والعدالة وحقوق الإنسان.

ثالثاً: التعريف بمضمون الكتاب

تحت عنوان «فلسفة التواصل وجدلية التحديث والتأثيل» يناقش الكاتب فلسفة التواصل عند طه عبد الرحمن، هذا المشروع القائم على أساس التأثيل بمعنى التأصيل والعودة إلى التراث حيناً وبمعنى الإغناء والإثراء بالتواصل مع الآخر أحياناً أخرى؛ والتحديث القائم على التجديد حيناً وبمعنى الارتباط ببعض منجزات وقيم الحداثة الغربية أحياناً أخرى.

وفيه يوضح فلسفة التواصل عند طه عبد الرحمن التي تمر أولاً، انطلاقاً من تحديد المسافة مع الأنا (التراث الإسلامي)، الذي يجب أن ندرسه من خلال تجديد المنهج في قراءة التراث وذلك عبر إعلان تهافت النظرة التجزيئية له وتأسيس النظرة التكاملية ثم إعلان تهافت آخر للقراءات الحداثية للقرآن الكريم والتأسيس لقراءة جديدة في التعاطي معه ومن ثم تجديد أهم علم تراثي ألا وهو علم الكلام.

ثانياً، تبني المنتج الفلسفي والمعرفي الغربي بما يتلاءم والمجال التداولي العربي ويتحدث هنا عن فلسفة للتواصل اللغوي

العربية الثانية التي تركز على محاسن النهضة الأولى وعيوبها بهدف الوصول إلى تنوير عربي يكون نتاجه التأسيس لفلسفة الإنسان الكوني من حيث الارتقاء بقيمه العليا وتجسيد حقوقه كإنسان. ويُنهى الكاتب الفصل بنوع من المواجهة المباشرة بين ناصيف نصار وطه عبد الرحمن وجاءت تحت عنوان ناصيف نصار وطه عبد الرحمن وجهاً لوجه.

قامت منهجية الكتاب على أساس المقاربة والمقارنة والتحليل والمجادلة والنقد. أما الإشكالية التي يحاول الكتاب معالجتها فتقوم على السؤال الآتي:

هل بناء تواصل فعلي للإنية العربية والإسلامية مع ذاتها ومع الآخر الحداثي الغربي يخضع لاعتبارات تأثيلية وقومية يكون فيها الإسلام هو موجّه الحوار وضابط الأحكام والقيم، أم إنها يجب أن تركز على ضوابط عقلانية وكونية تكون فيها الحقيقة الفلسفية هي أساس الانفتاح وركيزة التواصل.

ويهدف الكاتب من خلال دراسته هذه إلى المقاربة والمقارنة في محاولة لتقديم قراءة تأويلية لفلسفة التواصل التأصيلي عند طه عبد الرحمن وفلسفة التواصل العقلاني عند ناصيف نصار حيث يرتكز الطرح الطاهائي على فكرة الارتباط والتماهي بين الفلسفة عموماً ومفهوم الحداثة خصوصاً وبين الفكر الغربي وتأسيس مفهوم العمل الأخلاقي على مبادئ وقيم الدين الإسلامي وقراءة معاصرة للقرآن الكريم؛ وهنا يمتزج لدى طه عبد الرحمن التأثيل مع التحديث ومع التفضيل ليصل إلى مزج بين القومية والكونية يصعب من خلاله الحكم عليه.

ويوضح الكاتب هنا منهجية طه عبد الرحمن القائمة على التوجه الآلي والشمولي في تقريب التراث والتركيز على استئناف النظر الفلسفي العربي والإبداعي من طريق تحريره من التبعية. واعتبر أن النظر في المفاهيم والقضايا واستشكالها من جديد على غير التأليف الفلسفي العربي السائد اليوم هو المدخل الرئيسي إلى بعث الحياة في الفلسفة من خلال التجديد والتأصيل.

من هنا جاءت مناقشة الكاتب لمفهوم التحديث عند طه عبد الرحمن من خلال تجديد المنهج في النظر إلى التراث عبر تجاوز ونقد النظرة التجزئية للتراث، وتأسيس الرؤية التكاملية له، وإعادة بناء الإنية العربية الإسلامية انطلاقاً من مقولتي تحديث الأصل وتأصيل الحديث.

من هنا فإن الفيصل في الأخذ بالنظرة التكاملية يكون بالتطبيق الصارم للتوجه الآلي من خلال ميزاته، وهي الخدمة التي تكمن في النهوض والارتقاء بالمبادئ الأصلية للتراث والعمل على توجيه السلوك نحو المعرفة والمنهجية القائمة على التناظر الجماعي لأجل الوصول إلى الاتفاق.

فتكامل التراث والخروج إلى نظرة شمولية له كان انطلاقاً من إبراز التداخل المعرفي بين العلوم سواء كان داخلياً في علم أصول الفقه أو معرفياً خارجياً في صورة التقريب التداولي لعلم الكلام في تداخله مع الإلهيات.

اللغة والقصيدة من أهم الوسائل في إحداث التفرد المطلوب للتواصل والتفاعل. فالصيغة العقدية الدينية الإسلامية للأسس الأولى للممارسة التراثية هي السبب لما تتمتع

القائم على التمييز بين التحصيل والتوصيل والتأصيل في الترجمة، ويتكلم على التمييز بين الجانب الإشاري والعباري في قدرته على تحرير القول الفلسفي، ومن ثم الحديث عن إمكان إبداع حادثة إسلامية. من هنا فإن فلسفة التواصل الطاهائية تنقسم إلى عناصر أولها فك الارتباط بين الفلسفة بصفة عامة والحادثة بصفة خاصة وبين الفكر الغربي ومن ثم الحديث عن إمكان تأسيس الفكر العربي الإسلامي فلسفته الخاصة ومفهومه الخاص للحادثة ضمن ما يُسمى روح الحادثة؛ وثانيها الربط بين الأخلاق باعتبارها عملاً وبين الفلسفة باعتبارها نظراً؛ وثالثها ارتكاز العمل الأخلاقي على قيم الدين الإسلامي ومبادئه باعتباره رسالة ربانية مطلقة جامعة مانعة، موجهة إلى الإنسان بمفهومه الكلي والكوني في المقام الأول. لهذا تبدأ فلسفة التواصل عند طه عبد الرحمن قومية وتنتهي كونية، تراثية وتنتهي حداثية، ضمن محاولة لإنشاء نسق حداثي أخلاقي - إسلامي.

ويوضح لنا الكاتب مشروع طه عبد الرحمن الفلسفي، الذي يصفه بالتجريدي، أنه إحيائي فكري وفلسفي يتوسل النقد نهجاً والحفر العميق في حقول التراث والدين والسياسة. أما عن الكيفية التي يتم من خلالها «تحديث التواصل مع التراث» فله منهج يسعى فيه إلى إحياء مقدمات الإبداع والاجتهاد في الفكر العربي الإسلامي وإعادة الاعتبار إلى كل ما تم تبخيسه أو رفضه من الخطابات الفكرية العربية الإسلامية والنظر إليه بوصفه منفذ التجديد وملاحم الصنع المفهومي؛ وعليه يحاول طه عبد الرحمن إعادة الاعتبار إلى علم الكلام والخطاب الصوفي الذي يرتبط، في رأي طه عبد الرحمن، بالأخلاق الرفيعة في الإسلام.

ثالثاً، تجديد علم الكلام وإعادة تنظيم مراتب الحوارية.

يعتبر موضوع علم الكلام جوهر النقاش الفلسفي في الدراسات الإسلامية. ويقوم مفهوم التجديد في علم الكلام عند طه عبد الرحمن على الحس المنطقي وحده من خلال مؤلفه في أصول الحوار وتجديد علم الكلام طارحاً إعادة تجديد علم الكلام تجديداً إبداعياً تأصيلياً، وهو ما يؤكد نزوع هذا المفكر نحو المزوجة بين التأثيل والإبداع. ويؤكد أن التجديد بخطة الأنسنة مرفوض والتحديث اعتماداً على مبدأ التفضيل هو المطلوب.

ويناقش الكاتب رأي طه عبد الرحمن في إعادة تنظيم الخطاب الإسلامي نحو التأسيس لفلسفة تواصلية لأجل عقل نهضوي إحيائي يتخذ من تجديد علم الكلام مطية لبروز منهج في التفكير يقوم على تفعيل الأساليب الحوارية وتنظيم الخطاب الإسلامي على أساس من المناظرة التي تخضع للنقاش العقلاني والحر والجاد والهادف.

فالحوار إذ يقرب المواقف هو سبيل للوصول إلى الحقيقة. فقد توجهت مساهمة طه عبد الرحمن نحو تجديد علم الكلام بغاية نفخ الغبار عن مكنونات التحاور الإسلامي من أجل التأسيس لنظرية تحاورية وإبراز مياسم المناظرة الإسلامية لأجل تجاوز الفلسفة البرهانية نحو الفلسفة التداولية التي تركز في الكثير من معالمها على منهج المناظرة الذي طبع التراث الإسلامي الكلامي. ونبه الكاتب هنا أن طه عبد الرحمن إذ عاد بالصورة إلى التراث بصورة المختلفة فإنما للتعبير عن انسجام بين مفهومين هما التأصيل والإبداع.

به هذه الممارسة من السعة والثراء. وتتعلق الدواعي المعرفية بما يصدره المتحاورون بلغتهم وما يتعاملون به بموجب عقيدتهم فهي جملة مضامين دلالية وطرق استدلالية تتوسع بها المدارك العقلية وتنفث بها آفاق العالم.

وثانياً من خلال تجديد القراءة في التعاطي مع النص القرآني: إن التوجه التأصيلي لفلسفة التواصل عند طه عبد الرحمن يرتبط بالمقولة المركزية للتراث الإسلامي والقصد بذلك الوحي؛ فالتراث يتأتى من خلال التفاعل والامتزاج بين سلطة الوحي بقديسيته أولاً ثم بدوره التحفيزي ثانياً ووظيفته التوجيهية أخيراً وقوة الوعي وقدرته على النفاذ إلى جوهر النص لأجل فهمه وتفسيره وتأويله بغية تجاوز فكرة القيمة المرتبطة بالوجود إلى القيمة التي تتجسد من خلال الاستعمال.

يرى عبد الرحمن أن جميع القراءات للنص القرآني مناهج منقولة ويرى أن القراءات الحداثية للقرآن ليست تطبيقاً مباشراً لروح الحداثة، وهي تقليد للتطبيق الغربي وهو توجه يقطع الصلة بالماضي، لهذا كانت قراءات محمد أركون ونصر حامد أبو زيد محل نقد وهدم من جانب طه عبد الرحمن.

يعلن عبد الرحمن تهافت القراءات الحداثية التي تسعى إلى إحداث قطيعة معرفية مع ما يمكن أن نطلق عليه اسم القراءات التراثية متبعة في تحقيق مشروعها الاقتصادي مجموعة من الاستراتيجيات والخطط لا تنم عن إبداع مآصول إنما تقليد منقول لم يتعد حدود فلسفة الإسقاط. وكل خطة تتركب من ثلاثة عناصر (أركان الخطة)، وهي الهدف النقدي والأكلية التنسيقية والعمليات المنهجية، وهدفها إزالة العائق الاعتقادي.

الأصلية والتحرر من وسائل الفلسفة الغربية ودعا من خلاله الفيلسوف العربي إلى أن يهيئ لاختلافه الفكري ويضع أصوله ويبني مناهجه بما يجعل للأمة إسهاماً متميزاً في مجال الفلسفة.

من هنا دعا المفكر العربي لكي يتحصن بتكوين منطقي خاص يتم بواسطته تأصيل مفاهيم فلسفته موصولة بالمجال التداولي الإسلامي. ويتبنى عبد الرحمن هنا التأليف الاجتهادي الذي يقوم على اختراع المفاهيم وتوليد المصطلحات وتبيان الفروق وإنشاء الدعاوي وصياغة المبادئ ووضع القواعد وترتيب القوانين واستخلاص النتائج. من هنا يقترح أنموذجاً تنظييراً لفصل الترجمة يميز ما بين الترجمة التحصيلية والتوصيلية والتأصيلية. فإذا أراد المفكر العربي الخروج إلى دائرة الإبداع والتجديد فلن يكون إلا بتجاوز فلسفة التقليد وتأسيس فلسفة للتواصل التأصيلي؛ فلسفة تمثل التكميل والإغناء؛ فالخصوصية الفلسفية لا تعارض الكونية الفلسفية بل إن الأولى مهد الثانية.

إن فلسفة التواصل عند عبد الرحمن تفترض مبدأ الاختلاف وألية الحوار. والتحاورية هي ارتقاء السؤال بين الفلسفات القومية حتى يمكن الوصول إلى كونية فلسفية لم تقم على أساس الفرض والعنصرية، وإنما على أساس الحجة الأقوى والأكثر إقناعاً ومن ثم الاحتكام إلى التحاور والمناظرة لأجل تحقيق الكونية الإسلامية باعتبارها مجموعة قيم تسعى إلى المساهمة في ترشيد الأحداث وتجاوز العملية النقدية لما هو كائن نحو التأسيس لما يجب أن يكون وهو إعلان التلاحم والتماهي بين الخصوصية الإسلامية وتحقيق الكونية.

الفصل الثاني الذي جاء تحت عنوان الطاهائية وتأثيل الخطاب الحداثي الغربي، وفيه يقدم الكاتب لمشروع طه عبد الرحمن وطريقه التأثيلي التأصيلي لأجل نقد وتحليل وفهم المنتج الفلسفي والحضاري الغربي ومن ثم الحديث عن إمكان تأسيس حادثة إسلامية أساسها فلسفة التواصل التأثيلي. من هنا ناقش الكاتب المدلول الغربي للحادثة والاستفادة من روحها بنقدها وتأثيلها للوصول إلى الأنموذج الحواري العربي الإسلامي المأمول.

وعرّف الحادثة بمجمل التفاعلات المترابطة في كل جوانب الحياة ككل واتخاذ نمط حياة جديد مغاير للنمط القديم وعلى جميع المستويات. وبَيّن المنطلقات الفكرية والفلسفية للحادثة، وتحديدًا لدى ديكرت، والتي قامت على رفض التقليد ودعت إلى الإبداع وتجاوزت الخرافة والأسطورة وعقلنت الطبيعة وحددت العلاقة بين الروح والمادة. ووضّح ميزاتها القائمة على تسخير العقل والجسد في سبيل إعادة بعث وجود الإنسان، والقائمة على فلسفة الوعي التي تقوم على رؤى تجريبية، وأنطولوجية مثالية، متجهة نحو الملاحظة وكشف القوانين، وهي مشروع عالمي يجعل المغلوب مولعاً بتقليد الغالب خاصة مع التطور التكنولوجي الكبير وعلى جميع المستويات.

وتظهر مياسم التأثيل في مشروع طه عبد الرحمن الفلسفي من خلال فقه الفلسفة القائم على جانبين هما: فقه الترجمة الفلسفية، وفقه القول الفلسفي. ودعا من خلال الأول إلى ضرورة نحت منظومة اصطلاحية تتأسس على التبيين بإعادة صقل مفاهيم جديدة تتلاءم والروح الحضارية الجديدة ونابعة من الثقافة

ومن هنا جاءت فلسفة نصار نقدية لما سبق، والتأسيس لمبدأ الاستقلال الفلسفي الكفيل بإحداث نهضة عربية ثانية، وجاءت فلسفة التواصل عند نصار ذات طابع فلسفي وعقلاني وإنساني يروم الحقيقة المفرغة من أي تأثير أيديولوجي قوامها البرهان والنقد والحرية التي تعلي من شأن العلم والعلمانية الذي لا يقوم على القطيعة بين الإنسان ودينه وهويته إنما يتأسس على التمييز بين ما هو علمي وديني وروحي ومادي ونقدي وانتقادي نظري وتطبيقي. وعليه فالاستقلال الفلسفي أساسه تواصل فلسفي سليم وإبداعي يقوم على التقاطع بدل القطيعة، والتواصل بدل الاتصال أو الانفصال. من هنا جاء حديث الكاتب لجيب عن سؤال يندرج ضمن إشكالية هي إلى أي مدى يمكن الحديث عن فلسفة التواصل الكوني في ظل الاختلال وضرورة الاتفاق وحتمية الاستقلال؟

يبدأ نصار بالهدم وينتهي إلى البناء ويعلم تهافت التفكير الأيديولوجي ويعلم البديل التنويري العلماني المستند إلى قوة البرهان. وهو أساس التواصل السليم. من هنا تحدث الكاتب عن نقد التفكير الأيديولوجي عند نصار الذي يقر بضياح الحقيقة بين أيديولوجيا تاريخ الفلسفة ويعرفها بأنها «نظام من أفكار اجتماعية يرتبط بمصلحة معينة ويشكل أساساً لتحديد أمر تبرير فاعليتها الاجتماعية في مرحلة تاريخية معينة». وهو ما يعني وقوعها في أحكام جانبية وجزئية لأنها تفكير منحاز وعملي ومصلحي، وهنا تصبح الحقيقة مطلباً ثانوياً، وهي وليدة العقل والشعور والخيال والإرادة والنزعة الباطنية.

وأخيراً يناقش الكاتب، وتحت عنوان الموقف من الحداثة الغربية بين خيار الانقطاع وحتمية التقاطع، موقع عبد الرحمن من الحداثة الغربية؛ إذ انتهج أساليب علمية ومنطقية وأخوية لأجل التأسيس لتواصل صحيح يقوم على العقلانية العملية.

وتعلن عقلانية طه عبد الرحمن تهافت العقل المجرد نظراً وتطبيقاً وتؤسس لعقل عملي، تقوم على المجاهرة ثم المباطنة. هذا ولا يمكن التأسيس للعقلانية الناجعة والحرية العابرة والفردانية المتفتحة إلا بلفظة التماهي بين الفلسفة والدين بحيث تنتج لنا الفلسفة عقلاً منطقياً سليماً وينتج لنا الدين شريعة صحيحة، فيما يدعوه عبد الرحمن بالعقل المؤبد. وعلى الجملة فإن الأنموذج الحداثي لطه عبد الرحمن يقوم على نقد الاعتقاد بأحادية الوجود ودحض العقل المجرد والتأسيس لفلسفة إشراقية طاهائية ويكون تجليها في الارتقاء بمراتب الإيمان حتى تلامس الروح البشرية الأمر الإلهي وتحوله إلى وجود واقعي.

تحدث الكاتب في القسم الثاني للكتاب «ناصر نصار من التصادم الأيديولوجي إلى التواصل الفلسفي»؛ عن فلسفة التواصل عند ناصر نصار التي تركز على شقين هما: نقد التصادم الأيديولوجي الذي يقوم على إحداث فصل قصدي بين الإنسان وإنيته والثاني ينطلق من ضرورة التأسيس للتواصل الفلسفي الكوني الذي يركز على اعتبارات إنسانية وكونية وعقلانية. من هنا تأتي المحاولة النصارية انتصاراً للعقلانية بالمعنى المتفتح الذي لا يرى في العقل المجرد الوسيلة الوحيدة للمعرفة وانتصار العلمانية بالمفهومين السياسي والتنويري.

السلطتين متمثلة بالاستقلال وأن لا يكون هناك انغلاق أو تجاهل إنما احترام وتفتح. وعلى هذا الأساس وفي ظل الاختلافات الدينية لا بد من فرض الاحترام عن طريق الاستقلال المقنن دستورياً.

وهو يطالب بالفهم الصحيح لظاهرة السلطة في دنيا الإنسان وانتصار في كيان الإنسان الاجتماعي لإدارة الوحدة النسبية على الوحدة المطلقة وشيوع ثقافة العقل والحرية والمسؤولية في المجتمع مع اتساع انتشار النور العقلي الذي يصل إلى نتيجة هي أن حاجة الدولة إلى الدين ليست ملحة ولا جوهرية ولا كيانية. وما خلاف ذلك مرده إلا إلى حدود ثقافية نسبية متغيرة. من هنا لا بد من الارتكاز على مفهوم الدولة الديمقراطية الليبرالية ما دامت تعني التحرر التام من أن يكون الدين هو أساس قيام الدولة. والمجتمع الذي يتوخاه نصار هو المجتمع العلمي العلماني الذي يضمن علاقات سليمة بين القوى المكوّنة لهوية المجتمع، لذلك يؤكّد نصار أنه لا يمكن فصل الاتجاه نحو العلمية عن الاتجاه نحو العلمانية.

يستدعي المجتمع العلمي دولة علمية وبالتالي حكومة تدبر شؤون المجتمع على هدى العلم. وفي المجتمع العربي الأزمة هي أزمة قيم والحل يكون بالارتقاء الأخلاقي عن طريق الثورة الثقافية التي بموجبها يكون الشعور بضرورة موضوعية واحترام المعرفة والفكر ومعتقدات الآخر والتواضع والصدق وتقدير العلم والعلماء والجدية في صنع التاريخ وتوجيه الحضارة، من هنا جاء حديثه عن الحرية المسؤولة للدفاع عن الأفق العلماني للمجتمع العربي فهي أساس الفعل والتفكير. وبانفتاح حقل الحرية تظهر منظومة جديدة

الأيديولوجيا بالمعنى النصاري تتجه نحو العالم المعيش ومشكلاته وموضوعة لأجل جماعة معينة، فهي تحدد الصفات والميزات. ويتسم التفكير الأيديولوجي بالغائية والنفعية الحسية. من هنا ندرك صعوبة تنزيه التفكير الفلسفي عن أي ضغط أيديولوجي ما دام الآخر يمثل العدو دائماً. وصورة الآخر عند نصار يريدتها فلسفية وبراها أيديولوجياً، إذ إنها تسخر كل طاقاتها من أجل تحليل المنتج الثقافي الحضاري الآخر وتفسيره ونقده؛ فصورة الآخر صناعة وهي إنتاج بما يتلاءم ومصالح الجماعة.

ومن هنا جاء سؤال نصار: هل يمكن للعقل العربي أن يحرر نفسه من براثن الأيديولوجيا ويؤسس للحقيقة الموضوعية؟ وانطلق الكاتب للإجابة عن هذا السؤال لمناقشة موقف نصار من الأيديولوجيا عند هيغل وماركس اللتين تلتقيان ليكونا تمويهاً أيديولوجياً يقوم على فضح التسوية الأيديولوجية لكليهما.

فالتفكير الأيديولوجي انتفاعي وانحيازي وجماعي، لهذا لا بد من تحرير القول الفلسفي العقلاني الحر من كل أنواع التبعية والهيمنة للفكر الانتهازي الزائف؛ فالتفكير الفلسفي عند نصار يختلف عن الأيديولوجي لأنه يعبر عن الإنسان والحرية والحقيقة، ويؤكد ضرورة ارتفاع الوعي النظري والعلمي والفلسفي إلى أعلى حالات التنبّه والتحفّز وصقل أدوات التحليل والنقد حتى يتمكن من النمو بحرية خارجاً عن شبكات الإغراء التي تنسجها الأيديولوجيا.

وناقش الكاتب البديل العلماني عند نصار بدءاً من ضرورة الفصل ما بين السلطة الدينية والسلطة السياسية وأن تكون العلاقة ما بين

ناصر يف نصر يقترح أنموذجاً لعقلانية نقدية متفتحة على الآخر المختلف فكرياً وتاريخياً. ونصار ينقد ثقافة الإقصاء ونقض كل الفلسفات وأشكال الوعي التي تنتهي إلى التعصب بكل تجلياته. فتقدم البشرية محتاج إلى تجاوز التعصب مهما كان موضوعه وشكله. ودعوته لا تحتوي على أي نوع من أنواع القطيعة مع التراث فهو يرفع شعار النقد لأجل التأسيس لما هو مقنع ومقبول والتنوير لن يكون إلا بالفلسفة؛ بالإبداع لا بالاتباع؛ بالانفتاح لا بالانغلاق؛ بالكونية المبصرة لا بالقومية العمياء.

وأشار الكاتب إلى حديث ناصر عن النهضة العربية الثانية التي أراد من خلالها التأسيس لقيام وعي عربي بضرورة الاستقلال والإبداع، هي مشروع الهدف منها وضع الأمور في نصابها لأجل التفكير في النهضة؛ فالنهضة العربية الثانية في ما نفهمه عن ناصر ليست قائمة في الواقع الحسي بل في رؤية مستقبلية لواقع الوحدة العربية. ويقترح ناصر هنا أنموذجاً تنظيرياً يقوم على صياغة الأشكال صياغة مختلفة تقوم على مدلولين: الأول، تجاوز إشكالية الأصالة والمعاصرة؛ والثاني، التعامل الإبداعي مع العولمة □

من هذه العناصر تبدأ بمسلكية الحرية وتتوسع في مجتمع الحرية وتنتهي بحضارة الحرية.

وفي الفصل الرابع «التواصل الفلسفي وجدلية القومي والكوني»، يناقش الكاتب مشروع النهضة لدى ناصر الذي يرتكز على مقولة الاستقلال الفلسفي المحايث لتاريخ الفلسفة. وعليه، فإنه وجه سهام النقد لثلة من المفكرين العرب المعاصرين في تعاملهم مع تاريخ الفلسفة وبالتالي للنتائج التي وصلوا إليها؛ فالنهضة التي يهدف إليها ناصر لا تكون حقة إلا إذا جسدت تقدماً نابعاً من الإبداع الذاتي يجعل من الفرد المحور القادر على صناعة مصيره لأنه حر يمكنه تحديد هويته وتغيير واقعه.

إن العقلانية النقدية النصارية تفترض الارتكاز على مدلول الكائن العاقل الذي يُعبّر عن ذات فاعلة والعقل تجل من تجلياتها، وهي مسألة اقتناع بمدى قدرة العقل على ولوج ميادين مختلفة. لهذا فإننا نجد عند نصار عقلاً ينقد ذاته من الداخل ومن الخارج. وكل ثقافة متطورة راقية تحتاج إلى الاستنارة بأنوار العقل وإلى توظيف جديد للعقل وإن أفلحت في ذلك خرجت إلى طور أرقى وأسهمت في الارتقاء الشامل للنوع البشري.